

(١)

**نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم)
كما يجب أن نعرفه**

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، امتدح نبيه (صلى الله عليه وسلم) في محكم التنزيل ، قائلاً: { وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ } ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، القائل: (إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَخَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طَيْبَتِهِ ، وَسَأُتْبِكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ ، دَعْوَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عَيْسَى قَوْمَهُ ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ ، وَكَذَلِكَ تَرَى أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد :

فمع مقدم شهر ربيع الأول من كل عام يحتفل المسلمون بذكرى ميلاد سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ محبةً ، وتعظيمًا ، وتوقيرًا ، وإجلالًا له (صلى الله عليه وسلم) ، وإن من أوجب الواجبات ، وأقوى شواهد المحبة ، أن نعرف الناس بسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ ذلك أن بعض الناس لا يعرفون النبي (صلى الله عليه وسلم) المعرفة التي تليق به ، وتتناسب مع مكانته (صلى الله عليه وسلم) ، وما أجمل أن يكون حديثنا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وما أجمل أن تكون البداية مع حديث القرآن الكريم عنه (صلى الله عليه وسلم) ، { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } ، { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } .

لقد تحدث القرآن الكريم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) حديثاً كاشفاً عن مكانته وأخلاقه وكثير من جوانب حياته (صلى الله عليه وسلم) ، فهو نبي الرحمة ، حيث يقول الحق سبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} ، ويقول سبحانه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} ، ويقول سبحانه: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} .

ولقد أكد القرآن الكريم أن رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) لم تكن خاصة بالمؤمنين فحسب ؛ بل إن الرحمة التي امتلأ بها قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) شملت المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والطائع والعاصي ، والإنس والجن ، بل وجميع المخلوقات ، فقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) حداً يفوق كل التصورات ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يعفو عن ظلمه ، ويعطي من حرمة ، ويصل من قطعه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} ، ولا أدل على ذلك مما حدث يوم الطائف ، والذي كان أشدّ الأيام صعوبة على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كذبه أهل الطائف إلى الحد الذي حدا بأمين وحي السماء جبريل (عليه السلام) أن ينزل بأمر من ربه (عز وجل) ومعه ملك الجبال مُستأمرّاً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أن يُوقع بهم العذاب، ويجيب الرحمة المهداة (صلى الله عليه وسلم) قائلاً: {بَلْ أَرَجُو أَنْ يُخْرِجَ

(٣)

اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وعندما قيل له (صلى الله عليه وسلم): ادع على المشركين قال: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً).

ولم تقف مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) عند حدود البشر على اختلاف عقائدهم فحسب؛ بل اتسعت لتشمل الحيوان والطيور، فعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) حنّ وذرفت عيناه، فأناه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ذفراه فسكت، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟)، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبُهَيْمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنْكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبُهُ).

وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفرٍ، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تُعرّسُ، فجاء النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال: (مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا).

لقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) بأقواله وأفعاله وجميع أحواله تطبيقاً عملياً للمنهج الرباني الذي أراده الله (عز وجل) للبشرية، فكان (صلى الله عليه وسلم) قرآناً يمشي على الأرض كما وصفته أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها)، فكتابه (صلى الله عليه وسلم) كتاب رحمة، حيث يقول الحق سبحانه: {وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}، ويقول سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ} ودينه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للبشرية جمعاء، دين يرسخُ أسس التعايش السلمي بين البشر جميعاً، يحقن

(٤)

الدماء كل الدماء ، ويحفظُ الأموال كل الأموال ، على أسس إنسانية خالصة ، دون تفرقة بين الناس على أساس الدين ، أو اللون ، أو الجنس ، أو العرق ، فكل الأنفس حرام ، وكل الأعراض مصادرة ، وكل الأموال محفوظة ، وكل الأمانات مؤداة لأهلها ، وبلا أي استثناءات.

إنّ الناظر في حياة النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يجد أنها مفعمة بكل جوانب الرحمة والإنسانية، بما جبله الله (عز وجل) عليه من الخلق الحسن ، والسّجيا الطيّبة، والسّمات الفاضلة ، فهو الزوج نعم الزوج ، والأب نعم الأب ، والجد نعم الجد، فهو خير الناس لأهله ، ولأصحابه ، ولأمته ، وللعالمين ، فهذه زوجه السيدة خديجة (رضي الله عنها) تصفه (صلى الله عليه وسلم) ، فتقول : (إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ).

ولم تكن مظاهر الرحمة والإنسانية التي امتلأ بها قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) لتقف عند حدّ المعاملات اليومية مع الآخرين فقط ، بل كانت ممتدة وواضحة الأثر في التشريعات التي جاء بها ، فقد جاء (صلى الله عليه وسلم) بشريعة جعلت البشر كلهم أمام الله (عز وجل) سواء ، حيث يقول (سبحانه) { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }.

وكان من مظاهر هذه المساواة تكريمه (صلى الله عليه وسلم) للمرأة بعد أن عاشت عصوراً من القهر والظلم والظلام ، مسلوبة الإرادة من ممارسة أدنى حقوقها الإنسانية، فجاء بشريعة منحها الحقّ في الميراث بعد أن كانت هي نفسها تورث ، وجعلت لها الحقّ في التصرف والتملك ، واختيار الزوج ، وجعل لها من التشريعات ما يكفل لها كرامتها أمّاً ، وبنّاً ، وأختاً ، وزوجةً ، بل جعل رعايتها ، والعناية بها ، وحسن

(٥)

التعامل معها طريقاً إلى الجنة ، حيث قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ اتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يَبْنَ أَوْ يَمُتْنَ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ).

ومن مظاهر الإنسانية - أيضاً - في شريعته (صلى الله عليه وسلم) رفقه بأتمته في أداء العبادات ، فكان (صلى الله عليه وسلم) إذا سمع بكاء الصبي الصغير في المسجد يعجل في صلاته رحمة بالطفل ، وشفقة بأمه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : (إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَاسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَاتَّجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ)، بل كان (صلى الله عليه وسلم) يخشى أن يُفرض عليهم ما لا يستطيعون المداومة عليه، فكان يقول : (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَكْثَرَةُ سُؤَالِهِمْ وَأَخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ).

لقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في الإنسانية على مر التاريخ ، وهذه الإنسانية التي أسكنها الله (عز وجل) قلب نبيه (صلى الله عليه وسلم) أكبر دليل على سماحة الإسلام ، ورحمته وبسره ، فشريعة الإسلام هي شريعة السلام ، واليسر ، والرحمة بكل معانيها، فلنترحم فيما بيننا ، ولنرحم من في الأرض ليرحمنا من في السماء ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

(٦)

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

لا شك أن مظاهر العظمة والإنسانية والرحمة في شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) لتظهر واضحة جلية في أرقى صورها مع مخالفه ، فقد عاش النبي (صلى الله عليه وسلم) - عشر سنوات في المدينة - قائداً لمجتمع يتعايش فيه المسلمون مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، وعلى الرغم من أن غير المسلمين كانوا يمثلون الأقلية في هذا المجتمع ، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أنصفهم غاية الإنصاف ، وعاملهم معاملة إنسانية لا تفرقة فيها بين مسلم أو غير مسلم ، فالجميع يتمتع بكافة الحقوق الإنسانية ، انطلاقاً من قول الله (عز وجل) : {لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يقبل دعوتهم ، ويحضر مجالسهم ، ويزور مريضهم ، ويواسيهم في مصابهم ، ويعاملهم بأرقى أنواع المعاملة التي ينبغي أن يتعامل بها أبناء المجتمع الواحد ، وقد ربى النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على هذا المنهج النبوي من التعايش السلمي ، فهذا عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) وقد دُيحت له شاة في أهله ، فلما جاء سألهم : أهديتُم لجارنا اليهودي ؟ أهديتُم لجارنا اليهودي ؟ فإني سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) يقولُ : (مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُهُ) .

(٧)

بل مما يدل على ترسيخه (صلى الله عليه وسلم) لأسس التعايش السلمي في المجتمع المدني أنه (صلى الله عليه وسلم) مات ودرعه مرهونة عند يهودي ، وما فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك إلا تعليمًا للأمة ، وتطبيقًا عمليًا لما يدعو إليه الإسلام من سلم وسلام ووثام مع الناس جميعا ؛ حيث يقول الحق (سبحانه) : {لَا يَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاكِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

لقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) في إنسانيته ورحمته ، وحسن تعامله مع غير المسلمين أسوة وقدوة ، وأنموذجًا فريدًا لم تر البشرية مثله ، يقول الفيلسوف الألماني "جوته" : (ولا شك أن التسامح الأكبر أمام اعتداء أصحاب الديانات الأخرى ، وأمام إرهاصات وتخريفات اللادينيين - التسامح بمعناه الإلهي - غرسه رسول الإسلام في نفوس المسلمين، فقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) المتسامح الأكبر، ولم يتخذ رسول الإسلام موقفًا صعبًا ضد كل الذين كانوا يعتدون عليه بالسب، أو بمد الأيدي ، أو بعرقلة الطريق ، وما شابه ذلك ، فقد كان متسامحًا ، فتبعه أصحابه وتبعه المسلمون، وكانت - وما زالت - صفة التسامح هي إحدى المميزات والسّمات الرّاقية للدين الإسلاميّ ، وللحق أقول : إن تسامح المسلم ليس من ضعف؛ ولكنّ المسلم يتسامح مع اعتزازه بدينه ، وتمسكه بعقيدته) .

ما أحوجنا إلى أن نقندي بأخلاق سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سلوكنا ، ومعاملاتنا ، فنتحلى بالرحمة والرأفة واللين والسماحة ، وأن نعامل الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم)؛ نشرًا لرسالته ، وبيانًا لهديه وسنته، فنتحول الرحمة إلى سلوك عمليّ في حياتنا.

**اللهم شفّع فينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
واسقنا بيده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا.**

(A)